رواية

علي بدر: «عزيزتي» الثورة

دعد ديب

في روايته «لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي» (دار الرافدين ـ 2017)، يفتح علي بدر عدسة كاميرته مسلطاً الضوء على مفهوم الثورة وأخبار الثوريين، الموضوع القديم والحديث. يفكك الروائي العراقي مفهوم هذه الثورة، ويوثق لأخبارها المحزنة في ذاكرة العراقيين، ومن عاصروا الثوريين، ليقتفي آثارهم ومصائرهم. يتجاوز كون السياسة موضوعاً جافاً للسرد الأدبي بالتفافه على الفكرة ليناقش قضية الإنسان، نتاجها وانعكاساتها.

بطلب من وكالة الأنباء «ام أي سي»، يكلّف الراوي لتقصي أوضاع مجموعة من الثوريين الماركسيين أو التروتسكيين الذين غادروا بغداد في سبعينيات القرن الماضي والتحقوا بالثورة العالمية ضد المصالح الغربية – الامبريالية. يتدرج في الإضاءة على ثورة الأهوار المغيبة والمسحوقة التي قامت في منطقة الجنوب العراقية زمن حكم صدام، قبل قمعها وتصفيتها. أما من تبقى من أفرادها، فقد توزعوا في أصقاع الأرض، ومنهم مَن توجه إلى أديس أبابا حيث الأرض البكر، الحلم، النساء العاريات، الكوبرا والتمساح إبان حكم العقيد مغنيستو الذي أطاح بالإمبراطور هيلاسيلاسي، زمن انتصار الشيوعية فيها. هكذا، ينتقل مكان السرد والتطورات الدرامية إلى هذه البقعة لمتابعة سير الشخصيات.

تلك الأحداث الدامية والثورة المهيضة وما رافقها من خراب في ذاك الزمن، أسهمت الإدارة ذاتها إلى جانب السلطات المحلية، في وأدها وإطفاء جمرها الملتهب. إذ دار الزمان وانقلبت الأدوار، وصارت الإمبريالية اليوم تبحث عن الثوار القدامى لتحارب بهم الأنظمة بعدما ساعدت قديماً الأنظمة للقضاء عليهم. تفتش في أوراقها القديمة عمن يمكن استخدامه وتجنيده في برامجها: «الأمريكان أطاحوا بالشيوعيين لمصلحة البعثيين واليوم أطاحوا بالبعثيين بمساعدة الشيوعيين». والنتيجة «مهاجرون شيوعيون قديماً ومهاجرون بعثيون حديثاً وهم معاً في أميركا». وما فوضى الجنس والإدمان إلا تلك الهاوية التي انحدروا إليها بأبعادها النفسية والسياسية.

لطالما كانت الأفكار الثورية والأعمال البطولية باستلهام جموح الهدف النبيل، حلماً يراود كثيرين، ومصدر افتتان لهم على اختلاف فئاتهم العمرية، وتباين توجهاتهم الفكرية. فالصورة الجذابة للثورة الطهرانية والفاضلة، يتعالى وهجها في أحلام الروايات وأفلام السينما، بشرط أن لا تؤدي بهم إلى الموت.

لكن الراوي منذ البداية يتنصل من صفات البطولة فيها، هو المهاجر والهارب من القمع وتكميم الأفواه يدعي انسلاخه عن تاريخه وأفكاره وانتماءاته الايديولوجية وانسجامه مع جنسيته الجديدة وعائلته الأميركية وعمله الصحافي الذي ازدهر وتطور نتيجة حياديته واطلاعه على الكثير من خصوصيات العالم الثالث الذي أتى منه حيث الكوارث والحروب مصدر رزق وسعادة لأبطال الميديا لما فيها من اكشن وإبهار للمتلقي في رصدهم للفظاعات التي ترتكب بعيداً عنه. ورغم قناعاته الماركسية ومنظومته الأيديولوجية وديكتاتورية البروليتاريا وانحيازه للذود عن المظلومين والعدالة الاجتماعية، إلا أنّ عمله بالوكالة محايد جداً كمحلل سياسي لشؤون الشرق الأوسط. ورغم محاولته الانسلاخ عن جلده وتغيير اسمه وزواجه بأميركية وإنجابه أولاداً «أميركيين» يأكلون الهمبرغر ولا يعرفون من البلاد التي أتى أبوهم منها إلا القصص الخيالية عن مصباح علاء الدين والسندباد البحري، فإن معاناته مزدوجة. هو ممزق بين واقع ناعم وهانئ، وذاكرته المعطوبة بأهوال المآسي التي مر بها. زوجته وأولاده نموذج للاستهلاك الأميركي الذي لا يهمه سوى التمتع بالمكاسب المادية، أياً كان مصدرها. فلسفة تتلخّص في «الحقيقة هي التي تخدم مصلحتي» حسب تعبير زوجته التي جل ما يعنيها من عمله ليس مصداقيته أو معرفته أو نظرته الثاقبة، بل ما تحصل عليه من دولارات. ولذا، فالصراع كبير في داخله، بخاصة عندما يحق لابنه أن يقاطع سماعه لأخبار الموت والدمار في بلده البعيد، من أجل شراء ملابس لرياضته الأثيرة. وما وجود عشيقة له وترحيبه بمهمة السفر الجديدة، إلا تعبير عن امتعاض وعدم رضى عن طريقة عيشه وتمرد على شكل هذه الحياة رغم السلام الظاهري فيها.

يتدرج في الإضاءة على ثورة الأهوار المغيبة والمسحوقة

مكابدات وهموم يعبرها علي بدر في تفكيكه لبذور نشوء الثورات، متسائلاً عن الدافع المحرك للجمهور وخروجه للمجابهة: هل هو الصراع الطبقي وتباين مستويات المعيشة؟ (يستشهد بطرافة بالثورة الفرنسية: «لا أتخيل أن كل الفرنسيين قد قرأوا كتاب «العقد الاجتماعي» لجان جاك روسو وخرجوا للثورة بعدها») هل هو ضغط الاستبداد وأهمية التساؤل عن أجيال أهدرت عمرها وشبابها بالثورات والانقلابات حيث نكون أمام نموذجين: نسخة بن لادن للثورة بلا أحلام كبيرة يردنا إلى عالم ما قبل العالم، والنموذج الآخر الذي يأخذنا إلى عالم لم يولد بعد وهو في ذلك يعيدنا إلى الحاضر والواقع الجديد؟ فالقوى التي نريد أن نقيم عليها ثورة لا مكان لها. القوى المستغلة والظالمة تسبح في الهواء ومتغلغلة في كل شيء، ولا مكان محدداً لها لنشير إليها. لماذا انتعشت البلدان التي لم تحدث فيها ثورة بينما تهاوت البلدان التي حدثت فيها ثورات وسقطت إلى الحضيض؟ وكيف اضمحلت فكرة الثورات، ولم يعد هناك أنبياء للثورة؟ إذ لا أحد يخترع لنا يوتوبيا لنركض وراءه.

ربما أراد لنا علي بدر أن لا نركض وراء الوهم الذي يباع لنا بأكثر من قناع أو ربما لإعادة النظر في مسلمات أخذت شكلاً أصولياً في وعينا وثقافتنا حول مفاهيم مكرسة بعد الصدمات المتتابعة التي عشناها وما زلنا نعيشها.

أحمد الصيّاد... درويش صنعاء وشاهد على تاريخها

جمال جبران

ينطلق اليمني أحمد الصيّاد في كل عمل روائي جديد له من قاعدة الحياة السياسية التي سارت حياته كثيراً على طرقاتها وزواريبها. لا بد من واقعة سياسية كي يمضي في كتابة رواية. وهذا إلى الحدّ الذي لا نعد فيه نُفرّق بين النص الروائي والوثيقة التاريخية أو الشهادة التي يدونها شخص حضر الوقائع وعاصرها وكان شاهداً عليها. هكذا يبدو الاستناد، في كل مرة، إلى واقعة بعينها كي يذهب في تكوين عمله السردي معتمداً، في أحايين كثيرة، على شخصيات مأخوذة من الواقع السياسي إياه، وإن جاءت مموهة قليلاً وبأسماء مُستعارة.

سنجد الصيّاد على هذه الحالة في باكورته الروائية «آخر القرامطة» (2004) التي حاول فيها مقاربة واقعة استشهاد رفيقه اليساري اليمني البارز جار الله عُمر الذي اغتاله طالب مُتطرف كان ينتمي إلى جامعة «الإيمان» التي يديرها رجل الدين الأصولي عبد المجيد الزنداني، أحد أبرز قادة الإخوان المسلمين (الفرع اليمني). وسيذهب عمله التالي «اليمن وفصول الجحيم» (2010)، الذي لم نعرف إن كان رواية أو سرداً في التاريخ - باتجاه واقعة «أحداث 13 يناير» في الجنوب اليمني، وهي واحدة من «عشرة أحداث هزّت العالم». من هنا جاءت تلك المقاربة التاريخية في صفحاتها على نحو مال بالرواية صوب كتابة تاريخية توثيقية، وإن أتت ظاهرياً في قالب سردي احتوى على شكل تقريبي يشير إلى أسباب ظهوره على قالب روائي.

وها هو الديبلوماسي، اليساري القديم الباقي على يساريته ـ الذي يشغل حالياً منصب مندوب اليمن في منظمة اليونيسكو، يعود ليقدم عملاً جديداً هو «درويش صنعاء» (الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت)، ناهلاً من التاريخ، ومشتغلاً عليه. هذه المرة، يقارب واقعة «السبعين» أو «ملحمة السبعين» بحسب التسمية المتداولة عنها عند أنصار «الجمهورية العربية اليمنية» سابقاً. يومها، وقف أبطالها في مواجهة المدّ الملكي ومن يستند خلفه من جماعة الإمامة المدعومة وقتها من مال آل سعود. رفع الثوّار وأهل المقاومة شعار «الجمهورية أو الموت»، رافضين عودة الملكية على نحو قاطع، وقد كانوا جميعهم من مختلف المناطق اليمنية شمالاً وجنوباً. كان ذلك في الفترة الواقعة بين 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1967 والثامن من شباط (فبراير) 1968.

منذ البداية، يسعى كاتب «اليسار اليمني، ظالم أم مظلوم» (2013) لتثبيت تنويه افتتاحي يدعو فيه القارئ إلى صبّ تركيزه على الفارق بين «الخيال والحقيقة». ليس هناك غير ذلك القارئ الذي سيقدر وحده «معرفة الحقيقة واكتشاف الخيال» في قلب الكتابة القادمة والمقيمة في قلب أوراق كل ذلك السرد التالي.

هكذا سنجد في «درويش صنعاء» برهان المولود في فاس المغربية. تركها سريعاً ليعيش زمناً ليس بالقليل في تركيا حيث تعلّم وعرف ما لم يكن يعرفه. ثم كانت اليمن وجهته مطيعاً لقول والدته التي أدلت، في أذنيه، معترفة بخبر يشير إلى أصوله اليمنية. «وها أنا اليوم في صنعاء بحثاً عن الله وحباً فيه» يقول الدرويش للشخصية الأولى التي سيلاقيها أثناء صلاة الليل قبل أن يقفل المسجد أبوابه. ومن هذه الشخصية الافتتاحية «حنتش»، سنجد نبرة الراوي واقفة إلى جوار أهل المقاومة الجمهوريين وفي مواجهة الجماعة المنادية ببقاء الملكية على حالها. وعبر «حنتش»، سنجد النظرة التي عمل أهل النظام الملكي على تعميمها بخصوص أهل المقاومة: «هؤلاء الجنود أوغاد. إنهم شيوعيون وملحدون، دخيلون على مدينتنا وعاداتنا وتقاليدنا. يسترقون أحاديثنا، ويحرقون نساءنا بنظراتهم الماجنة... يحاربون من طاعته واجبة وولايته ثابتة». إنها هنا الواجهة الدعائية نفسها التي بثها الجهاز الدعائي الإمامي بين الناس لمواجهة الثورة الأولى التي قامت ضده عام 1948. نشر خلالها بين عامّة الناس أن هؤلاء الثوّار هم جماعة من الملحدين الراغبين في تغيير آيات القرآن، وقد كانت حيلة ناجعة أسهمت في وأد الثورة في مهدها.

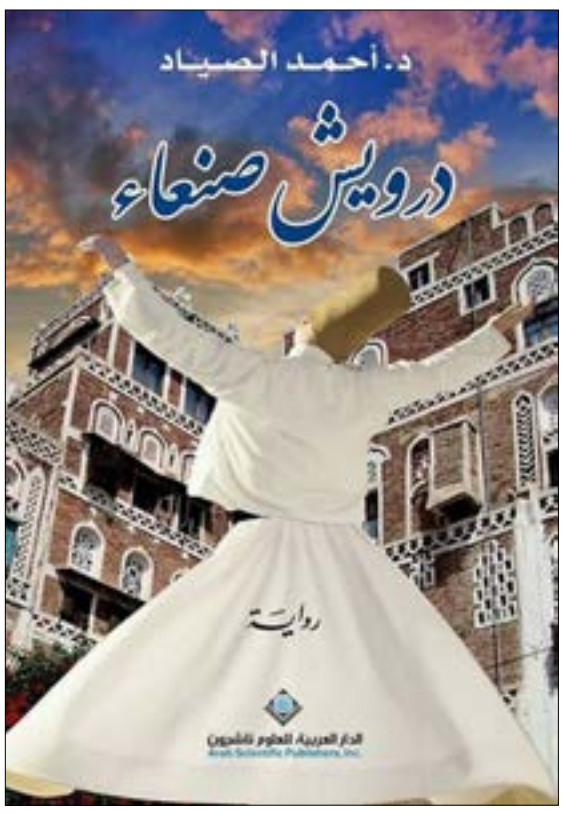

يضيء على «ملحمة السبعين» حين رفع الثوّار شعار «الجمهورية أو الموت»

لن يطول الوقت بالدرويش حتى ينتقل إلى جهة المقاومة. سيدخل «بيت الجمهورية» حيث يقيم شباب أتوا من كافة أنحاء البلاد رافعين شعار «الجمهورية أو الموت». وعلى هذه الحال، سيذهب السرد لمصلحة جهة ضد أخرى. يظهر صوت صاحب الرواية واضحاً حين يقوم بتأكيد وقائع بعينها وستأتي مكتوبة بعين قد شهدت الوقائع، لا من اعتمد على السمع في تدوينها. هكذا سيكون الباب مفتوحاً لدخول نبرة خطابية أسهمت في سحب مستوى السرد إلى خطابية فاقعة، لا تناسب الحالة الروائية، بل تحصرها في عمل توثيقي لا لبس فيه. حديث عن الطائفية والمناطقية التي حلّت بالجمهوريين بعد انتصار فك الحصار عن صنعاء، ووقوع الثوّار تحت تأثيرها حيث «يتمّ فرز الناس حسب ثيابهم، حسب نطقهم ومناطقهم». حديث عن أضرار شجرة القات وتناولها عند الثوّار. وعبر هذه النقطة، ستتأكد مسألة عدم انتباه أحمد الصيّاد إلى أنه يذهب في خنق «درويش صنعاء» وجعلها محصورة بقارئ يمني صرف لا تعني سواه. أضف إلى كل هذا، انتشار المفردات اليمنية المحلّية دونما توضيح للمعنى المُراد منها لقارئ عربي غريب عن المحلّية اليمنية، والشمالية منها على وجه الخصوص. كذلك احتوى العمل على أسماء مناطق وجغرافيا تخص واقعة حصار صنعاء نفسها، ولا يمكن إلا لقارئ مهتم بالتاريخ اليمني الشمالي المعاصر، إدراك الإشارات التي تعنيها فيما سيبدو القارئ العادي تائهاً في زحمة تلك الأسماء المنثورة على أوراق الرواية.